"دور عرب عُمان في اقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الأول في القرن السابع عشر"

الدكتور طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد - كلية التربية
قسم التاريخ

في عام ١٦٥٠ أجلت القوات العمانية المحتلين البرتغاليين عن الأراضي العمانية وعن مدينة مسقط بالذات . ومما لا شك فيه أن اجلاء البرتغاليين عن شبه جزيرة العرب كان مفخرة قومية وعملا رائعاً ؛ وهو في الوقت ذاته كان نقطة تحول في تاريخ المنطقة ذلك لأنه بداية لنمو القوة العمانية في الخليج امتدت زهاء قرنين . غير أن هذه الحادثة المهمة في التاريخ العربي الحديث قلّما أعطيت حقها في الدراسة والتمحيص ، وقد دفعني هذا الأمر إلى تسليط الضوء عليها ، اعتماداً على المصادر العمانية المحلية التي تم تحقيقها ونشرها حديثاً .

يعتبر كتاب « كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة » لمؤلفه سرحان بن سعيد الازكوي ، وتحقيق حسيب عبد المجيد القيسي (دار الدراسات الخليجية ، أبو ظبي ، ١٩٧٦) من أقدم المصادر التاريخية المهمة التي اعتمدت عليها في دراسة دور عرب عمان في تصفية الوجود البرتغالي في الخليج العربي . وتأتي أهمية هذا الكتاب في أنه استمد معظم معلوماته عن الفترة موضوعة البحث من « سيرة الامام العادل ناصر بن مرشد »[1] ، لمؤلفه عبد الله ابن خلفان ابن قيصر (القرن ١١ هـ/١٧ م) ، الذي كان معاصراً للامام ناصر بن مرشد اليعربي .

ومن المصادر الأخرى المهمة التي تناولت دور عرب عمان في إنهاء الوجود البرتغالي كتابا حميد بن محمد ابن رزيق المعنونان « الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين » و « الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان » . والكتاب الأول قد ترجم إلى الانكليزية

---

(١) لا يزال هذا المؤلف مخطوطاً انظر عن ذلك د . فاروق عمر ، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني ـ الخليج العربي ـ (بغداد ، ١٩٧٩) ص ١٣١ .

من قبل بادجر Badger [1] ، فاطلع عليه العديد من المؤرخين والقراء ، وأصبح من أكثر المصادر الشائعة عن تاريخ عمان ، إلى أن خرجت نسخته العربية المحققة من قبل عبد المنعم عامر ، ود. محمد مرسي عبد الله عام ١٩٧٧ . ومع اعتماد ابن رزيق في كتابه « الفتح المبين » على العديد من المصادر التي سبقته ، إلا أنه ينفرد أحياناً بمعلومات تفصيلية عن صلات اليعاربة بالبرتغاليين ، والمعارك أو الاتصالات التي جرت بين الطرفين .[2] أما الكتاب الثاني لابن رزيق « الشعاع الشائع » ، فهو في الواقع مجموعة قصائد أو أبيات شعرية نظمها المؤلف في احداث عمان مشفوعة بالأحداث التاريخية التي أشارت إليها الأبيات الشعرية . ويكرر المؤلف في كتابه الثاني كثيراً من الأحداث التي أوردها في كتابه الأول باستثناء بعض الزيادة أو النقص مع إختلاف في طريقة العرض .

فهو ينتقل من شعر إلى تاريخ إلى تراجم وسير ومن ثم إلى نسب وهكذا ، وهذا ما يستدعي القارىء التمعن والتروي والدقة في الانتقاء منه .

وهناك كتاب « تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان » لنور الدين عبد الله بن حميد السالمي (ت . ١٩١٣) ، الذي يعتبر من أشهر ما كتب عن عمان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . أما في الفترة التي نحن بصددها فقد نقل مؤلف الكتاب عن سابقيه ، ومع ذلك فإنه حاول أن ينتقد بعض الروايات التاريخية التي شك في صحتها .

وبالاضافة إلى المصادر العربية المحلية فقد استند هذا البحث على سجلات شركة الهند الشرقية الانكليزية المعاصرة والمنشورة بعنوان (The Fnglish Factories in India) ، وما دونه الاباء الكرمليون في فارس عن احداث الفترة نفسها باسم Achronicle cle oF The Crmelities in Persia during The 17 The and Ibth centuries إلى جانب ذلك استفاد هذا البحث من كل ماله علاقة بهذا الموضوع في المصادر العربية والأجنبية التي سيجدها القارىء في ثنايا البحث .

---

(١) George Percy Badger Histovy of The Imams and Seyyids of Oman, by Salil Ibn Razik From A.D661-1856 (London, 1871).

(٢) عمر ، المصدر السابق ، ص ص ١٤٤ ـ ٥ .

١ ــ القوى الرئيسة في الخليج العربي في مطلع القرن السابع عشر

أ ــ البرتغاليون في الخليج العربي حتى عام ١٦٢٣ .

بعد وصول البرتغاليين إلى مياه الخليج العربي في عام ١٥٠٧ ، أصبحت منطقة الخليج جزءاً من طموحات ... ، وتمثلت الخطة البرتغالية التي وضعها أفونسوا البوكيرك في ذلك الوقت بالقضاء على الوجود الاسلامي في البحار الشرقية وكسر احتكار العرب التجاري لها واغلاق المنافذ التي تمر عبرها هذه التجارة وبصورة خاصة البحر الأحمر والخليج العربي ، والاستيلاء على أهم المراكز الرئيسة في الخليج العربي ، وتعزيز الوجود البرتغالي « على الأرض العربية وعدن ، وعلى مياه وسواحل الجزيرة العربية والبحرين والقطيف والبصرة ، وعلى سواحل الخليج العربي كلها . . . »[١] ووفقا لهذه السياسة فقد تعرضت مدينة هرمز ، على الجانب الشرقي من الخليج العربي ، ومسقط ورأس الحد وقلهات وقريات وصور وخورفكان[٢] على الجانب الغربي ، لهجماتهم ، وذلك بقصد إخضاعها والاستيلاء عليها .[٣]

أصبح البرتغاليون سادة الموانىء الرئيسية على جانبي الخليج في العقود الأولى من القرن السادس عشر ، إلا أن سلطتهم هناك قد تعرضت لكثير من المضايقات من قبل عرب الخليج الذين ثاروا ضدهم في قريات وصحار عام ١٥٢٢ ، ومسقط وقلهان عام ١٥٢٦ ، والبحرين عام ١٥٢٩ .[٤] ويظهر أن البرتغاليين قد عرفوا كيف يتجنبون كل ما كان ينطوي عليه الحكم المباشر للمناطق المذكورة من نفقات ومشاكل فعمدوا إلى وضع القسم الأكبر من السلطة في أيدي الحكومات المحلية ، ولم يتدخلوا في تقاليد البلاد أو أنظمتها طالما لم تكن هذه تتعارض مع السلطة البرتغالية تعارضاً مباشراً ، أو تمس مصالحها واحتكاراتها التجارية[٥] .

---

(١) انظر Alfonso, Alboquerqve The Conmmentares oF... (Trans.) into English by W.de Cray Birch, Halel. Soc. (london, 1873), Vol. I, P. 113.

(٢) تقع هذه المدن جميعها في عمان وسيشار إليها بالتفصيل فيا بعد .

(٣) R.O. Bathurst, Maritime trade and Imamte Government Two Principal themesin The history oF OMan to 1728 in: The Avabian Peninsula ed. Derek Hopwood (Londou, 1972), P.9.4.

(٤) S.B. Miles, The countvies and tvibes oF The Culf (London, 1966), PP. 160-166

(٥) روبرت جيران لاندان ، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً ، ترجمة محمد أمين عبد الله (١٩٧٠) ص ٢٦ .

ومع ظهور العثمانيين في منطقة الخليج العربي في منتصف القرن السادس عشر كقوة منافسة للبرتغاليين أصبحت الموانىء العربية كالبصرة والقطيف والبحرين ومسقط موضع صراع بينهما . وقد فشل العثمانيون في النهاية ، رغم محاولتهم الأخيرة عام ١٥٨١ للسيطرة على مسقط ، في طرد البرتغاليين من الخليج العربي ، الذين أصبحوا القوة الرئيسة في ا لمنطقة حتى نهاية القرن السادس عشر[١] .

وفي أوائل القرن السابع عشر تظافرت عوامل عديدة في إضعاف الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي . يأتي في مقدمتها خضوع البرتغال للعرش الاسباني في عام ١٥٨٠ ، وتسخير مواردها لخدمة المصالح الاسبانية الامر الذي أضعف الامبراطورية البرتغالية فيما وراء البحار ، كما أن تعصب البرتغاليين وقساوتهم جعلهم مكروهين بين سكان الخليج ، وبخاصة عرب عمان الذين تنامت قوتهم على عهد اليعاربة[٢] . هذا بالاضافة إلى ظهور قوى أوروبية أخرى في المنطقة ، مثل الانكليز والهولنديين ، وكان لظهورهم الأثر الفعال في اضعاف البرتغاليين في جهات الخليج العربي[٣] .

وعلى الساحل العربي من الخليج ، الذي كان حتى ذلك الوقت مهملاً إلى حد ما من قبل القوى الوطنية التي انحصر صراعها فيما بينها داخل الاقليم ، كان للبرتغاليين قواعد رئيسة كمسقط ، ولكن سلطتهم كانت آخذة في الزوال . وكان هذا المكان ـ بعد هرمز ـ هو قاعدتهم العسكرية الرئيسة في منطقة الخليج[٤] .

كان من أولى المؤشرات الفعلية لزوال السيطرة البرتغالية في الخليج هو تدخلهم في شؤون المنطقة الداخلية على خلاف سياستهم السابقة . ففي عام ١٦١٦ ، وبناء على طلب الأمير عُمير بن حمير بالمساعدة ضد خصمه مهنا بن محمد الهديفي ، الذي احتل احدى المناطق التابعة له ، فقد قام البرتغاليون بمهاجمة الباطنة ميناء صحار وسيطروا عليه ، وكان هدفهم الحقيقي من الهجوم هو تدمير الميناء لأن ازدياد التجارة فيه قد أدى إلى

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : صالح اوزبران ، الاتراك ا لعثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ ـ ١٥٨١ ، ترجمة الدكتور عبد الجبار ناجي (بغداد ، ١٩٧٩) ص ص ٥٨ ـ ٩ .

(٢) انظر ادناه عن نمو قوة عرب عمان .

(٣) د . عبد الامير محمد امين ، « دور القبائل العربية في صد التوسع الأوروبي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » ، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ (بغداد ، ١٩٧٣) ص ٦٥١ ، Sir Arnold wilson, The Gulf Clondon

(٤) ج . ج . لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي (قطر الدوحة ، بدون تاريخ) ج٢ ص ٦٣٢ .

نقص عوائدهم في مسقط وهرمز ، وبهذا مهدوا لاحتلال المدينة احتلالاً متواصلاً[١] إلى ان استعادها العمانيون منهم . وكانت الحادثة الثانية والمهمة على طريق زوال النفوذ البرتغالي في الخليج العربي هو فقدانهم لهرمز ، أكبر قواعدهم في المنطقة ، ومحاولة الفرس ضم قواعدهم الأخرى على الساحل العربي كصحار وخورفكان إلى نفوذهم ، ولكن البرتغاليين استطاعوا قبل أن ينتهي عام ١٦٢٣ من طردالفرس من المدينتين المذكورتين معا .[٢] وقبل أن يتنفس البرتغاليون الصعداء كان عليهم أن يواجهوا قوة الأئمة اليعاربة الناشئة .

٢ ــ العمانيون وقيام حكم الأئمة اليعاربة عام ١٦٢٤ .

كان يحكم عمان عند وصول البرتغاليين إلى الخليج العربي في مطلع القرن السادس عشر الامام محمد بن اسماعيل ، الذي شهد حكمه عهد السيطرة البرتغالية ـ التجارية على المنطقة ، وكانت وفاته في عام ٩٤٢ هـ/١٥٣٥ م .[٣] وقد خلفه في السلطة ولده بركات ، وكانت مدة حكمه وحكم منّ جاءوا من بعده ، والتي نفتقر إلى المعلومات التفصيلية والواضحة عنها ، قد انتهت بانبعاث الدعوة لإحياء الدولةالنبهانية من جهة وبنشاط القبائل الأخرى المنافسة لها من جهة أخرى[٤] .

استعاد النبهانيون السلطة الفعلية في عمان عام ١٥٦١ في شخص سلطان بن محسن النبهاني ، وذلك بعد أن فقدوا السيطرة على البلاد في نهاية القرن الخامس عشر[٥] . وكانت مراكزهم الرئيسية هي الأقسام الداخلية من عمان في اقليم حجر الجبلي وفي منطقة مقنيات وينقل . ولكن نجاح هذه الاسرة في تولي الحكم في عمان لم يستمر بدون مشاكل ، فقد دخلت في صراعات مستمرة مع القبائل الأخرى ، وكانت بهلا ـ ما تزال مدينة هامة ـ هي العاصمة الأساسية للبلاد كلها في ذلك الحين، وما أكثر ما استعادها

---

(١) لوريمر ، المصدر نفسه ، Miles, op. Cit, PP. 183—4 ، الازكوي ، المصدر السابق ، ص ٨٤ ، ولكنه يشير إلى هذه الحادثة بشكل مبهم ومختصر جداً ، بل أنه يشير إلى البرتغاليين باسم العجم .

(٢) لوريمر ، المصدر السابق ، ج٢ ص ص ٦٢٢ ـ ٣ .

(٣) الازكوي ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٤) ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٦٠ ، انظر أيضا : Bathurst, Pp. cit, p.. 4.

(٥) ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٦٠ انظر أيضا : J.C. Willcinson, The origins oF The Omani State in: The Arab Peninsula ed. D. Hopwood (London, P. 82)

وفقدها النبهانيون ومعارضوهم[١] .

ويبدو أن السبب في فشل النبهانيين في حكم عمان وتوحيدها يعود إلى رغبة العمانيين ، ومعظمهم يعتنقون المذهب الأباضي[٢] ، في اختيار إمام يكون رئيساً للدولة بدلاً من نظام الحكم الوراثي الذي كان عليه النبهانيون ، واستمر الحال كذلك حتى جاء الامام ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٢٤ . بالاضافة إلى ذلك فقد اتبع النبهانيون على ما يبدو سياسة قاسية تجاه العمانيين ولهذا لم يتمكنوا من كسبهم إلى جانبهم وتوحيد قوتهم .[٣] وعلاوة على ذلك كله ، فلم يظهر النبهانيون أي دور بارز في مواجهة البرتغاليين في عمان . ومع أننا لا نستطيع أن نجزم بوجود علاقة بين صراع النبهانية واليعاربة وبين احتلال البرتغاليين لصحار عام ١٦١٦ ، ولكن يبدو أن انهيار حكم النبهانية قد أعقب الاحتلال البرتغالي للمدينة بفترة قصيرة .[٤]

لقد كان انتخاب الامام ناصر بن مرشد اليعربي في الرستاق في نهاية عام ١٦٢٤ يمثل فاتحة لمرحلة مهمة ليس في تاريخ عمان فحسب ، وإنما في تاريخ الخليج العربي كله ، ذلك لأن الامام الجديد استطاع من توحيد القبائل العربية تحت حكومة مركزية قوية من ناحية ، وعمل على تحرير بلاده من الغزاة البرتغاليين المتمركزين في عدد من المواقع الاستراتيجية مثل مسقط وصحار من ناحية أخرى .[٥]

٣ ــ دور العمانيين في تصفية الوجود البرتغالي من الخليج العربي ١٦٢٤ ـ ١٦٥٠ .

أ ــ المرحلة الأولى : فترة حكم الامام ناصر بن مرشد ١٦٢٤ ـ ١٦٤٩ .

قبل أن يدخل الامام ناصر بن مرشد في صراعه مع البرتغاليين ، وضع نصب عينيه

---

(١) الازكوي ، المصدر السابق ، ص ٨٤ ، Willcinson, op. cit, p. 82

(٢) الاباضية : فرقة معتدلة من فرق الخوارج ، وهم يعتقدون بانتخاب الامام عندما يصبح عاجزاً أو عند موته ، ويصبح عندها الامام المنتخب هو بنفس الوقت القائد العسكري والسياسي انظر : T. Lew Icki, EI2 art, al-Ibadiya, Bertram Thomas, Arab rule uuder The Al Bu Said dynasty oF om an 1741-1937 (Loudon, 1938), p. 10.

(٣) يشير الازكوي وابن رزيق إلى سياسة النبهانيين القاسية تجاه أهل عمان انظر الازكوي ، المصدر السابق ، ص ٨٤ ، ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٦١ .

(٤) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٢ ص ٦٣٢ .

(٥) أمين ، المصدر السابق ، ص ٦٥٢ ، Bathurst, op. cit, p. 95

توحيد كل العمانيين ، حيث صرف السنوات الأولى من حكمه في شن حملات في الأقاليم الداخلية لتحقيق هذه الوحدة . وقدا استطاع خلال ذلك من توسيع سلطته إلى اقليم حجر الشرقي ، المطل على عدد من الأودية المهمة ، مُؤمنًا بـذلك الـطريق المؤدي إلى الشرقية وجعلان ، وضامناً السيطرة على الكثير من القرى في المنطقة . وإلى الشمال من ذلك كان البرتغاليون يسيطرون على مسقط ومطرح وصور وقريـات ولكنهم لم يدّعـوا السيادة على غيرها من المناطق . وفي اقليم حجر الغربي بسط الامام نفوذه على جميع المنطقة الجبلية الممتدة من وادي ضنك- باستثناء منطقة إبرا Ibra حتى مقنيات وبهلا - التي كانت خاتمة المطاف في خططه لتوحيد البلاد . أما في المناطق الجبلية المطلة على الساحل فقد قبض الامام على الرستاق ونخل بينما بقيت الموانىء بيد البرتغاليين[١] وما أن تم له الأمر بتوحيد البلاد واخضاع القبائل العمانية التي رفضت الاعتراف به حتى وجه اهتمامه نحو البرتغاليين فشن ضدهم حرباً لا هوادة فيها خلال العقود التالية[٢] .

وبالنسبة للبرتغاليين فقد انتقل عدد كبير منهم إلى مسقط بعد سقوط هرمـز بيد الفرس عام ١٦٢٢[٣] ، التي كانت معقلهم الاستراتيجي المهم في الخليج لأكثر من مائة سنة . وبعدئذ حاول البرتغاليون جعل مسقط ، إلى جانب البصرة ، مركزهم الرئيـس للتجارة في الخليج العربي ، وهو أمر ترتب عليه أيضا تركيز الوجود البرتغالي في الموانىء العربية على الساحل العماني .[٤] فمن ناحية عملوا على تنصيب محمد شاه ابن شقيق حاكم هرمز ، الذي هرب مع البرتغاليين عقب سقوط هرمز ، في مسقط ، وحاولوا اجبار العرب القاطنين على السواحل العربية على قبول طاعته .[٥] ومن ناحية أخرى فقد أسرع

---

(١) عبد الله بن خليفان بن قيصر ، سيرة الامام العادل ناصر بن مرشد ، مخطوطة المتحف البريطاني برقم Add 23, 343, Pt.I ورقة ٤أ_٨أ ابو سليمان محمد بن عامر بن رشيد المعاولي ، قصص وأخبار جرت بعمان ، مخطوطة المتحف البريطاني رقم 6568ورقة ١١٣ ب ، نقلا عن Bathurst , op. cit, p. 95.

(٢)Miles, op. cit, p.192.

(٣) لقد كان للتعاون الذي تم بين الفرس والانكليز في توجيه ضربة مشتركة ضد البرتغاليين في هرمز أثره الكبير في اضعاف النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ذلك لأن سقوط هذه المدينة بيد الفرس قد أفقد البرتغاليين قاعدة ارتكازهم الرئيسية في المنطقة .

(٤) Miles, op. Cit, p. 192, F.S. Danvevs. The Portuguescin India (London- 1894i, VOl. I, p. 532, R.D. Bathurst, The yarubi dynasty oFOman unpublished ph.b Thesis (oxford, 1967), P. 53.

(٥) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٢ ص ٦٣٤ ، Miles, op. cit, p.192

البرتغاليون إلى ترميم أسوار مدينة مسقط ، الممتدة من بوما صالح Booma Salih حتى باب المثاعيب ، وزادوا في تحصيناتها عن طريق بناء أبراج جديدة على السور وأبنيته وعلى الممرات الرئيسية المؤدية إلى كلبوة وريام وسيداب[١] . وبجانب ذلك فقد تم تأسيس دائرة للكمرك ، ومرفأ لرسو السفن[٢] .

وفي سياسة البرتغاليين تجاه عرب عمان فإنها لم تكن أقل عدوانية من تلك التي مارسوها ضد الفرس في هرمز ، خصوصاً وأنها عرقلت وصول العمانيين إلى موانئهم البحرية التي كانت تحت السيطرة البرتغالية . ولذلك لم يكن غريباً أن يكون هدف الامام ناصر بن مرشد ، الذي أعاد للامامة هيبتها وللبلاد قوتها ووحدتها ، منصباً على تحرير الموانىء العمانية من النفوذ البرتغالي . ففي بداية الثلاثينات من القرن السابع عشر ، وعندما كانت الامكانيات العسكرية والبحرية للقائد البرتغالي في الخليج العربي ري فرير Ruy Freir محدودة بسبب الصراع البرتغالي ـ الهولندي في الهند ، فقد استغل الامام هذه الفرصة وبدأ بمهاجمة الحصون البرتغالية على الساحل العماني ، وكانت حصون مدينة مسقط هدفاً له . إذ جهز الامام جيشاً بقيادة الشيخ مسعود بن رمضان وكانت واجهة هذه المدينة ، حيث عسكر بمنطقة طوى الرملة من المطرح ، وهناك دارت معركة بينهم وبين البرتغاليين تمكن فيها الجيش العماني من هدم بعض الأبراج والتحصينات البرتغالية في مسقط ، وعندئذ طلب البرتغاليون الصلح الذي كان من شروطه اطلاق أموال العمانيين المحجوزة في صحار فوافق البرتغاليون على ذلك[٣] . ثم وجه الامام اهتمامه نحو مدينة جلفار الصيِّر (أو رأس الخيمة) ، حيث كان هناك حصنان أحدهما للفرس بقيادة ناصر الدين العجمي ، والآخر للبرتغاليين الذين احتفظوا ببعض القطع البحرية هناك . وكانت القوة العمانية بقيادة علي بن أحمد ، الذي نجح في فرض الحصار على كلا

---

(١) انظر عن هذه التحصينات البرتغالية نور الدين عبد الله بن حميد السالمي ، تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان (القاهرة ، ط٢ ، ١٣٥٠) ج٢ ص ٦٢ ، د . سعاد ماهر محمد ، الاستحكامات الحربية بسلطنة عمان ، الدارة ، العدد الثالث ، السنة السابعة (١٩٨٢) ص ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

(٢) انظر : Pietro Della Valle, The Travels oF Della Valle into The East India and The Arabian desert (Lond on, 1665), P. 233, See also Miles, op.cit., p. 192.

(٣) الازكوي ، العدد السابق ، ص ١٠٠ ، ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٧٢ حيث يضيف أيضاً بأن البرتغاليين قد وافقوا على دفع ضريبة (جزية) سنوية للامام ، ولكن يظهر أن حدوث هذا الامر قد تم في وقت لاحق ، بدليل أن ابن رزيق نفسه لا يشير إليه في مؤلفه الآخر الموسوم « الشعاع الشائع » ، تحقيق عبد المنعم عامر (١٩٧٨) ص ٢١٥ .

الحصنين ومن ثم استعادتها وطرد الفرس والبرتغاليين منها . وعاد علي بن أحمد والقوة التي كانت معه إلى نزوى ، بعد أن عيّن واليا من قبله على جلفار[1] .

لقد شجعت هذه الانتصارات التي أحرزها الامام ، والتي جاءت في وقت توفي فيه القائد البرتغالي ري فرير عام ١٦٣٢ الذي كان معروفاً بقدراته العسكرية على مواصلة الحرب ضد البرتغاليين .[2] ففي آب من عام ١٦٣٣ (محرم ١٠٤٣) أمر الامام والي لوي حافظ بن سيف[3] بالتوجه إلى صحار وبناء حصن حولها من جهة البحر ، وقد استعان حافظ بن سيف في ذلك بأهل المناطق المجاورة من بني خالد والعمور ، فاجتمعت عنده عساكر كثيرة ، وأقام في مكان يسمى البدعة من صحار[4] . وعندئذ هاجمت القوات العمانية مدينة صحار ، إلا أنها تراجعت إلى حصن آخر بسبب تعرضها لنيران المدافع البرتغالية الكثيفة التي وجهت نحوها من حصن المدينة وبروجها .[5] .

وفي هذا الوقت أيضا حاول الامام على ما يبدو الدخول في صلح مع البرتغاليين الذين قطعوا كل الطرق المؤدية إلى مسقط من الداخل ، وكان القاضي خميس بن سعيد الرستاقي هو الذي مثل الامام في المفاوضات[6] . وكان بصحبة القاضي الرستاقي قوة كبيرة ، فما أن أظهر البرتغاليون تعنتهم في المفاوضات حتى توجه صوب بوشر (إحدى قرى منطقة مسقط) ، وأقام أخيرا في المطرح شمالي مسقط . وهناك تم عقد صلح بين الطرفين حيث تضمن وقف القتال بينهما ، وهدم التحصينات التي أقامها البرتغاليون خارج أسوار مسقط والمطرح ، والسماح للعمانيين بالاتجار بحرية في مدينة مسقط[7] .

---

(١) للتفاصيل انظر الازكوي ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ ، ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ص ٢٧٣ - ٤ .

(٢) Bathurst, Maritime trade and Imamte Government P.98.

(٣) الازكوي ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ في حين يشير اليه بن رزيق الفتح المبين ص ٢٧٤ ، والشعاع الشائع ، ص ٢١٩ باسم حافظ بن سنان ، ومن المحتمل وقوع تحريف في الاسم .

(٤) الازكوي ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ ، ابن رزيق ، الشعاع الشائع ، ص ٢١٩ .

(٦) يشير الازكوي ص ١٠٣ إلى أن القاضي هو الذي بعث رسله إلى البرتغاليين طالباً الصلح في حين أن ابن رزيق (الفتح المبين ، ص ٢٧٥ ، الشعاع الشائع ، ص ٢٢٠) يؤكد أن البرتغاليين هم الذين أوفدوا رسلهم اليه ، ولعل الرأي الأول هو الأرجح .

(٧) الازكوي ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، ابن زريق ، الشعاع الشائع ، ص ٢٢٠ .

وبعد فترة قصيرة من ذلك ، اي في عام ١٦٣٤ ، عاود الامام نشاطاته الحربية ضد البرتغاليين حيث وجه جيشا كثيفا إلى كل من صور[١] ، وقريات[٢] ، وذلك بقيادة مسعود بن رمضان الرمضاني ، الذي استطاع من فرض الحصار على صور اولا ، فشلّ قدرة البرتغاليين على مواصلة الحرب ، وبالتالي التخلي عن المدينة للعمانيين . ثم توجه مسعود بعد ذلك إلى قريات ، وحدث للبرتغاليين في هذه المدينة ما حدث لهم في صور تماما ، حيث تخلوا عن هذه المدينة بعد حصار شديد[٣] . وهكذا استطاع الامام انتزاع هاتين المدينتين من أيدي البرتغاليين ، محققا بذلك ضم جميع مناطق عمان الساحلية إلى سلطته باستثناء مسقط والمطرح ، والحصن الذي بيد البرتغاليين في صحار[٤] .

وفي السنوات الخمس التالية بينما شعر البرتغاليون بنوع من الارتياح بسبب المعاهدة التي عقدوها مع الانكليز عام ١٦٣٥ والتي أنهت حالة الصراع بينهما ، فأنهم دخلوا في صراع جديد مع الهولنديين[٥] ، وهذا ما منعهم من التعرض للمناطق التي حررها الأمام . وفي الفترة نفسها فاننا لانسمع شيئا عن اي فعالية حربية قام بها الأمام ضد البرتغاليين ، ولا يستبعد أن يكون الامام قد قضاها في اخماد الحركات الداخلية او انتظار الوقت المناسب لمهاجمة البرتغاليين من جديد .

وكان عام ١٦٤٠ يمثل بداية لمعاودة الامام هجماته ضد البرتغاليين . ففي هذا العام أبلغ بعض العرب العاملين في دار الكمارك البرتغالية في مسقط أمام عمان أن عدد الجنود البرتغاليين قد نقص نقصاً كبيراً نظرا لارسال كثيرين منهم في حملة بحرية ، فقام

---

(١) صور : مدينة تجاريةهامة تقع على الساحل في المنطقة الشرقية غربي رأس الحد .

(٢) قريات : مدينة ساحلية في منطقة الحجر الشرقي .

(٣) ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٧٥ ، الشعاع الشائع ، ص ٢٢٠ .

(٤) Achronicle of the carmelities in Persia and the Papal mission of the xvllth and xvlllth centuvies (london, 1939), Vols I, P.330. C.R. Boxer, Anglo- Portuguese rivalvy in the Gulf, 1615-1635 in: Chaptein Anglo - Portuguese relations ed. Edgar prestage (watford, 1935), P. 118,

(٥) ابن رزيق ، الفتح المبين ص٢٧ ، الشعاع الشائع ، ص ٢٢ ، ولكنه يشير إلى قائد الجيش العماني باسم سلطان بن سيف ، ابن عم الامام مرة ، وباسم مسعود بن رمضان الرمضاني مرة أخرى .

G.D. Ramsay, English overseas trade during the centaries of Emergence (London, 1957), P.74.

الامام بهجوم على القلعة لكنه صدّ عنها وتكبد خسائر جسيمة[1] . وفي تشرين الثاني من عام ١٦٤٣ استولى عرب عمان على صحار ، فاسروا عددا من الجنود البرتغاليين وقتلوا الحامية العسكرية التي كانت بها ، ومن المحتمل أنهم استعادوا في الوقت نفسه مدينة خور فكان على ساحل عمان ، بعد أن ظلت بيد البرتغاليين طوال عشرين عاما منذ ١٦٢٣[2] . وكانت مسقط في عام ١٦٤٧ مسرحا لحرب عنيفة ، حيث هوجمت من قبل العرب المحيطين بها[3] .

وكان اكبر هجوم شنه العمانيون زمن الامام ناصر بن مرشد ، رغم كبر سنه وضعف نشاطه ، هو الهجوم الذي بدأ في السادس عشر من آب عام ١٦٤٨ ، وفيه هاجمت القوات العمانية بقيادة سعيد بن خلفان مدينة مسقط وفرضت عليها حصارا محكما . وفي الحادي عشر من أيلول بدأت ذخيرة البرتغاليين بالنفاد فطلبوا فتح باب المفاوضات ، إلا أن الامام فرض شروطا صعبة لم يقبلها البرتغاليون في بداية الأمر ، فتجدد القتال . وساءت حالة البرتغاليين المحاصرين ونفدت ذخيرتهم وانتشرت الاوبئة بينهم ، فاضطروا إلى قبول شروط ا لامام في نهاية كانون الاول[4]. وقد تضمنت تلك الشروط :

١ ــ ان يهدم البرتغاليون قلاعهم العسكرية في مطرح وقريات وصور وتسويتها بالأرض ، وأن يهدم العمانيون قلعة كانوا قد بنوها في مطرح ، ليظل المكان محايدا في المستقبل .

٢ ــ أن تمر السفن العمانية إلى البحر دون تفتيش .

٣ ــ أن يعفى العمانيون من دفع الضرائب الشخصية والتجارية عند دخولهم مسقط وخروجهم منها ، وأن تكون التجارة حرة طليقة في المحيط الهندي لمختلف الأجناس .

---

(١) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٢ ص ٦٣٤ ؛ Miles, opicit, pp.193-; 94; Wilson, op.cit, p.154.

(٢) Achronicle of the carmelities in Persia, Vol.1, p.358: لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ص ٦٦ ؛ ج٢ ص ٦٣٥ .

(٣) Achronicle of the Carmelities in Persia, Vol.t, p.358.

(٤) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٢ ص ٦٣٥ ، ومن المؤسف حقا ان لا تذكر المصادر العمانية المحلية هذه الوقائع المهمة ، مع أنها تمثل صفحة مشرقة في سبيل حركة التحرير العربي من الاستعمار البرتغالي .

٤ ــ أن يهدم العمانيون كل التحصينات التي أقاموها خلال فترة الحصار ، على أن لايقوم البرتغاليون ببناء تحصينات أخرى على انقاضها[١] .

وتمثل الشروط المذكورة أنفا أكبر ضربة للبرتغاليين ذلك لأنهااضعفت وجودهم التجاري والعسكري في الخليج العربي إلى حد بعيد . وقد عزلت السلطات البرتغالية في لشبونة على أثرها القائد البرتغالي المسؤول عن توقيعها . وارسلت تعليماتها إلى المنطقة أكدت فيها ضرورة اتخاذ كل جهة ممكن للحفاظ على مسقط ، ومرابطة المزيد من السفن البرتغالية بالقرب منها ، وعدم السماح للعرب في الأقامة في مسقط ، وتعزيز القلاع البرتغالية المتبقية هناك[٢] .

ومع أن هجوم العمانيين عام ١٦٤٨ لم ينته بطرد البرتغاليين من مسقط تماما ، وذلك لقبولهم بشروط الامام ناصر بن مرشد المفروضة عليهم ، إلا أن وفاة الامام في ٢٣ نيسان ١٦٤٩ (١٠ ربيع الآخر ١٠٥٩) ، ومجيء امام جديد نشيط قد أدى إلى تجدد السياسة الهجومية ضد البرتغاليين لتوحيد البلاد تحت راية اليعاربة .

ب ــ المرحلة الثانية : فترة حكم الامام سلطان بن سيف ١٦٤٩ ـ ١٦٥٠ :

لم تكن الاتفاقية التي وقعها البرتغاليون مع الامام ناصر بن مرشد لتقف حائلا في سبيل حركة التحرر التي بدأها الامام ناصر وتبعه فيها خليفته سلطان بن سيف ، الذي امتدت فترة حكمه مابين ١٦٤٩ إلى ١٦٧٩ . فقد استطاع هذا الامام اقتلاع آخر ميناثين كانا في قبضة البرتغاليين وهما مطرح ومسقط خلال الاعوام الاولى من حكمه ، والتي تمثل المرحلة الثانية من مراحل كفاح عرب عمان ضد البرتغاليين في الخليج العربي .

بدأ الامام سلطان بن سيف هذه المرحلة الجديدة بعد انتخابه للامامة ، وذلك في نفس اليوم الذي توفي فيه الامام ناصر بن مرشد . وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين العمانيين[٣] يعزون قيام الامام سلطان لمحاربة البرتغاليين لعدم التزامهم بشروط

---

(١) انظر نصوص هذه الهدنة في : William Foster, The English Factories in India 1646- 50 (oxford, 1914), Dec. 4, 1648.P.

لوريمر ، دليل الخليج ، ج ٢ ص ٦٣٥ .

(٢) Miles, op. cit, p.195.

(٣) انظر على سبيل المثال ابن رزيق ، الشعاع الشائع ، ص ٢٥٢ : السالمي ، تحفة الاعيان ، ج٢ ص ٦٣ ؛ Miles, op. cit, p.195

الاتفاقية مع الامام ناصر بن مرشد ، ومنعهم للعمانيين من دخول مسقط ، إلا أنهم في الوقت ذاته يشرون إلى قيام الامام سلطان بذلك مواصلة لجهود من سبقه في طرد من تبقى من البرتغاليين في مطرح ومسقط ، وهو ما يبدو واضحا في سياسة الامام المقبلة . إذ لم تمض فترة طويلة على انتخابه للامامه حتى خاض حروبا عديدة ضد البرتغاليين انتهت بطردهم من عمان نهائيا .

في اواخر عام ١٦٤٩ قاد الامام سلطان بنفسه الجيوش العمانية لمهاجمة البرتغاليين في مسقط ، فنزل بطوي الرملة في المطرح وبلغ معسكره حتى روي ، في منطقة العاصمة . ومن هناك بدأت جيوشه بمهاجمة مسقط تارة وضرب البرتغاليين في المطرح تارة أخرى . إلا أن هذه الهجمات لم يحالفها التوفيق وذلك لأن البرتغاليين قد بنوا أبراجا حصينة على رؤوس الجبال بمسقط ، ووضعوا فيها خيرة رجالهم المزودين بالبنادق والمدافع ، وكانوا يضربون كل من تقدم من جيوش الامام باتجاه مسقط[١] . وفي الوقت نفسه لم يتمكن البرتغاليون من اخراج الامام وعسكره من المطرح ، ووصلت الحالة بينهما إلى طريق مسدود ، وكاد الامام أن يفك الحصار المفروض على مسقط لولا حصول تطورات جديدة في الموقف[٢].

هذه التطورات الجديدة يرجعها ابن رزيق إلى قصة مفادها أن الحاكم البرتغالي في مسقط اراد الزواج من ابنة أحد قواده الهنود ، ولكن الآخر رفض تزويجها منه إلا بعد مضي فترة من الزمن وإلا إذا أخذ بنصائحه بشأن استبدال كل انواع الذخيرة والمؤونة الموجودة في داخل الحصون بغيرها . وقام ذلك القائد في الوقت نفسه بالاتصال سرا بالامام سلطان معلما أياه بالحالة في مسقط ، وطالبا منه التهيؤ لدخول المدينة في يوم عيد رأس السنة الميلادية لعام ١٦٤٩ ، حيث يكون فيه البرتغاليون في عطلة تامة . وقد نفذ الامام وصيته القائد المذكور فدخل مسقط[٣].

ولكن هذه القصة كما أوردها ابن رزيق لايمكن الوثوق بها تماما لعدم وجود ما

---

(١) ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٨٥ ؛ السالمي ، تحفة الاعيان ، ج٢ ص ٦٣ ؛
Achronicle of the Carmclitics in Persia, vol.1, p.358.

(٢) ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٨٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ص ٢٨٦ ـ ٩ .

يؤكدها في المصادر المعاصرة . وعند الرجوع إلى حوليات الاباء الكرمليين في فارس[١] حول الحادثة نفسها يجد المرء ما يشير إلى اعتماد الامام سلطان على بعض العرب القاطنين حول مدينة مسقط ، ولا يستبعد أن يكون هؤلاء العرب هم الذين زودوه بحقيقة الاوضاع داخل المدينة ، وبخاصة في نهاية شهر كانون الاول عام ١٦٤٩ ، الذي كان يصادف عيد رأس السنة الميلادية ، حيث لم تكن هناك ثمة مراقبة دقيقة ؛ فاستطاعت القوة العربية من التسلسل إلى داخل المدينة واحداث حالة اضطراب فيها . وهذا الامر يبدو ممكنا خصوصا وأن العمانيين قد جربوا هذه الطريقة في وقت سابق في عام ١٦٤٠[٢] .

وفي متابعة الطريقة التي دخلت بها القوات العمانية إلى مسقط ، فقد أشار ابن رزيق الى وصول تلك القوات إلى السور وارتقائها أياه ، وامتلاكها كل أبوابه ، بعد أن قتلت حراسه من البرتغاليين . ثم انقسامها إلى قسمين ، قسم لمهاجمة الحصن الغربي ، وقسم أخر لمهاجمة الحصن الشرقي ، وتمكنها من الاستيلاء عليهما معا[٣] . ويستفاد من تقارير الاباء الكرمليين في فارس بأنه في نهاية شهر كانون الثاني في عام ١٦٥٠ فقد حوصر البرتغاليون في قلعة الجلالي في مسقط ، بعد ان قلت مؤونتهم ، فاضطروا الى التسليم وتركوا القلعة[٤] ، وهذا هو شأنهم في المطرح أيضا حيث سلم قائدهم الحصن إلى القوات العمانية[٥] . ولم يبق للبرتغاليين غير سفينتين كانتا تضربان المناطق الداخلية في مسقط بمدافعهما ، إلا أن العمانيين تمكنوا من اسرهما والقاء القبض على كل من كان على ظهرهما[٦] . وعندما وصلت هذه الانباء المفزعة إلى السلطات البرتغالية في الهند فقد أرسلت في الحال أسطولا برتغاليا قويا مؤلفا من عدد كبير من السفن الحربية ، ولكن وصول هذه السفن جاء متأخرا ، إذ سقطت القلعة الوحيدة التي ظلت بيد البرتغاليين في كانون الثاني عام ١٦٥٠[٧]

---

(١) Achronicle of the carmelities in Persia, vol.1, p.358; ، لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٢ ص ٦٣٦ .

(٢) انظر اعلاه .

(٣) ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ص٢٨٩ ـ ٩٠ .

(٤) Achrouicle of the carmelities in Persia, vol. 1, p.359.

(٥) ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٩٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ص٢٩٠ ـ ٩١ .

(٧) William foster, The English Factories in India , 1651-54 oxford ,1915) p.64.

وهكذا نجح العمانيون على عهد الامام سلطان بن سيف في استكمال تطهير بقية الاراضي العمانية في السيطرة البرتغالية بعد أن انتزعوا آخر مواقعهم في مسقط والمطرح . وقد أهب هذا الانتصار الكبير حماس العمانيين فلم يكتفوا بطرد البرتغاليين من عمان والخليج العربي فحسب ، بل أنهم شنوا عليهم الحرب في المحيط الهندي والهند وشرق أفريقيا [1].

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES

(١) للتفاصيل انظر :

Achronicle of thecarmelitiesin Persia, vol. 1,p. 360; miles, op. cit, p. 212.

مصادر البحث

١ ــ المصادر العربية :

الازكوي . سرحان بن سعيد ، كشف الغمة الجامع لاخبار الأمة ، تحقيق حسيب عبد المجيد القيسي (دار الدراسات الخليجية . ابو ظبي ، ١٩٧٦).

ابن رزيق ، حميد بن محمد ، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر ائمة عمان ، تحقيق عبد المنعم عامر (١٩٧٨) .

ابن رزيق ، حميد بن محمد ، الفتح المبين باخبار السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ود. محمد مرسي عبد الله (١٩٧٧) .

أمين ، د. عبد الامير محمد ، دور القبائل العربية في صد التوسع الاوربي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ (بغداد ، ١٩٧٣) .

اوزبران ، صالح ، الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ ـ ١٥٨١ ، ترجمة الدكتور عبد الجبار ناجي (بغداد ، ١٩٧٩) .

السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد ، تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان (القاهرة ، ط٢ ، ١٣٥٠)

عمر ، فاروق ، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني ـ الخليج العربي (بغداد ، ١٩٧٩) .

لاندن ، روبرت جيران ، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً ، ترجمة محمد امين عبد الله (١٩٧٠) .

لوريمر ، ج.ج. دليل الخليج ، القسم التاريخي (قطر ، الدوحة ، بدون تاريخ) .

محمد . د. سعاد ماهر ، الاستحكامات الحربية بسلطنة عمان ، الدارة العدد الثالث ، السنة السابعة (١٩٨٢) ، ص ص ١٨٠ ـ ٢٢٥ .

٢ ــ المصادر الانكليزية

Alboquerque, Alfouso, The commentaries of (trans.) into English by W. de Gray Birch, Hakl Soc. (London, 1873). 4 vols.

Bathurst, R.D., Maritime trade and Imamte Government: two principal themes in the history of 'Oman to 1728 in: The Arabian peninsula, ed. by Derek Hopwood (London, 1972).

Idem, The ya'rubi dynasty of Oman, unpublished Ph.D. thesis (Oxford, 1967).

Boxer, C.R., Anglo-Portuguese rivalry in the Gulf, 1625-35 in: Chapter in Anglo-Portuguese relations ed. Edger Prestage (Watford, 1935).

Achronicle in the carmelities in Persia and the Palpal mission of the XVII the and XVIIIth centuries (London, 1939).

Danvers, F.S., The Portuguese in India, 2 vols (London, 1894).

Della Valle, Pietro, The Travels of .. Into the East India and the Arabian desert (London, 1665).

Foster, Wissiam, The English factories in India, (Oxford, 1909-).

Miles, S.B., The countries and tribes of the Gulf (London, 1966).

Ramsay, G.D., English overseas trade during the centuries of emergence (London, 1957).

Thomas, Bertram, Arab rule under the Al Bu Said dynasty of Oman 1741-1937 (London, 1938).

Wilkinson , J.C., origins of the Omani state in: The Arabian Peninsula, ed. by Derek Hopwood (London, 1972).

Wilson, Sir Arnold T. The Gulf (London, 1954).

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
مصر - القاهرة - 1 شارع الدول العربية